تراث عظيم يتعرض للإهمال والنسيان

مخطوطات العرب.. بلا محققين

«مضى زمانٌ كنا نرى فيه سدنة التراث وجهابذة المخطوطات وجهاً لوجه في دار الكتب المصرية وفي غيرها من خزانات الكتب العربية فنأخذ منهم المنهج والطريقة والهيام بالمخطوط والصبر في فض مغاليقه والاهتداء إلى مكنونه ومعرفة أسراره وألغازه. واليوم يعاني ابن الألفية الثالثة في قراءة المخطوطة بل في معرفة اسمها أو حتى السماع بها. ولا أقول والأسى يعتصرني: في استخراج دفائنها ومعرفة أنواعها ونُسَخها ومدادها لغيبة شيوخ التحقيق الكبار وانفراط عقد مدرسة تحقيق التراث العريقة التي من أعلامها الشوامخ:

أحمد زكي باشا شيخ العروبة وأحمد تيمور باشا وعبدالسلام هارون ومحمد كرد علي ومحمد أبو الفضل ابراهيم والسيد أحمد صقر وأحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر ومحمد علي البجاوي وحمد الجاسر وحامد دنيا ومصطفى السقا ومحمود الخضيري والأب جورج شحاتة قنواتي والأب أنستانس الكرملي والطاهر أحمد مكي ومحمود علي مكي واحسان عباس وناصر الدين الأسد ومصطفى جواد وابراهيم شبوح وفؤاد سيد وصلاح الدين المنجد ورمضان عبد التواب ومحمود الطناحي وعادل سليمان جمال وعبد الفتاح الحلو وراتب النفاخ وعبد الله الغنيم ومجاهد توفيق الجندي وغيرهم».

هكذا شخّص المحقق الأردني الكبير عصام الشنطي «١٩٢٩ – ٢٠١٢م» أزمة التراث التي تجتاح العالم العربي الآن.

وهي أزمة قلّ فيها الخبير بل انعدم. وضاع فيها علم التحقيق بل اندرس. وبات هناك نماذج تُعد على أصابع اليد الواحدة من البقية الصالحة من أجيال العماليق في هذا الفن الذي صدّره العرب إلى الدنيا يومَ أن كانت لهم نهضة تحدّث عنها الشرق والغرب. ويوم أن كانت لهم حضارة أظلت الإنسانية بمكارم الأخلاق وأنوار المعرفة وقبسات الفن.

ومن قبل ذلك نادى المحقق الرائد عبد السلام هارون «١٩٠٩ – ١٩٨٨م» في كتابه «نوادر المخطوطات» بضرورة تدريس علم تحقيق المخطوطات ونشرها في الجامعات المصرية والعربية على أيدي كبار المحققين وشيوخهم فقال: «وقد ناديتُ أن تلتزم كلياتنا الجامعية ذات الطابع الثقافي الإسلامي بتكليف طلبة الدراسات العالية أن يقوم كلٌ منهم بتحقيق مخطوط يمت بصلة إلى موضوع الرسالة التي يتقدم بها فقلتُ: وانه لمّا يُثلج الصدر أن تتجه جامعاتنا المصريَة اتجاهاً جديداً ازاء طلابها المُتَقدّمين للاجازات العلمية الفائقة اذ تُوجّهَهم إلى أن يُقدّموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقاً لمخطوط يمت بصلة إلى موضوع الرسالة. وعسى أن يأتي اليوم الذي يكون فيه هذا الأمر ضريبة علمية لا بد من أدائها».

لكنّ نصف نداء هارون هو ما تحقق في أرض الواقع فبدلاً من اسناد الجامعات المصرية والعربية تدريس فن التحقيق إلى علماء المخطوطات الكبار وجدناها.. أسندته إلى أساتذة أكاديميين لا علاقة لهم بالتراث ولا بالتحقيق في كثير أو قليل. ما أدى إلى كثرة الكم المحقق وقلة النوعية والكفاءة وضياع هذا العلم الجليل بين الأحفاد.

وهذه شهادة الدكتور المحقق الراحل عبد اللطيف عبد الحليم «أبو همّام» «١٩٤٥م – ٢٠١٤م» في تقديمه للكتاب التذكاري «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى عادل سليمان جمال» قال فيها والأسى يعتصره: «وانّي ليحزنني الآن أن أرى معالم هذا العلم العظيم وقد درستْ شواهده على يد الصّبية الصغار من طلاب الشهادات الجامعية في التحقيق اذ غدا– تقريباً إلا مَن رحم ربك– مهنة مَن لا مهنة له ولولا السُّؤر الباقي في مثل عادل سليمان والنبوي شعلان وبقية هذا الفريق الصابر المحتسب وهذا العلم العسير فمن العجب ألاّ يُعتَد به في نظَام الترقيات في الجامعات المصرية في حين يهتمون –بدلاً من الكُتُب المؤلفة كما هو الحال من أمد قصير– ببحوث وأوراق هي كالخِرَق البالية في أغلبها. وبعد قليل نجدَ أساتذة الجامعات أو جُلّهم وليسً لواحد منهم كتاب مادام قد وصل إلى الأستاذية بخمسة بحوث لا خمسة كتب كما كان العهد الماضي».

وقبل ظهور المطبعة في العالم العربي في العصر الحديث وما صدّرته مطبعة بولاق الشهيرة بمصر من مخطوطات ومطبوعات في شتى التخصصات جابت أقطار العالم كان للمستشرقين فضل السبق في نشر التراث العربي وعن هذا يقول العلاّمة الدكتور الطاهر أحمد مكي «١٩٢٤–...» في كتابه «دراسة في مصادر الأدب»: نشر المستشرق الهولندي توماس ارينيوس «١٥٨٤ – ١٦٢٤م» كتاب «مجمع الأمثال» للميداني ونشر مواطنه يعقوب جوليوس «ت ١٦٦٧م» و«لامية العجم للطغرائي» و«عجائب المقدور» لابن عربشاه ونشر دي خويه «١٨٣٦ – ١٩٠٩م» طبعة نقدية لتاريخ الطبري.. وحقّق فان فلوتن «١٨٦٦ – ١٩٠٣م» كتاب «البخلاء» للجاحظ ونشر بيفان «١٨٥٩ – ١٩٣٤م» «نقائض جرير والفرزدق». ونشر الانجليزي ادوارد بكوك «ت ١٦٩١م» «مختصر الدول» لابن العبري وحقّق لايل «١٨٤٥ – ١٩٢٠م» «شرح المفضليات» لابن الأنباري ونشر الفرنسي سلفستر دي ساسي «١٧٥٨ – ١٨٣٨م» «كليلة ودمنة» و«ألفية ابن مالك» و«رحلة عبد اللطيف البغدادي» ونشر مواطنه كوسان دي برسفال «١٧٩٥ – ١٨٧١م» «المعلقات السبع» و«مقامات الحريري» ونشر كترمير «١٧٨٢ – ١٨٥٢م» «مقدمة ابن خلدون» و«الروضتين» لأبي شامة ونشر الألماني فلوجل «١٨٠٣ – ١٨٧٠م» «كشف الظنون» لحاجي خليفة/ و«الفهرست» للنديم و«مؤنس الوحيد» للثعالبي وحقّق رودولف جاير «١٨٦١ – ١٩٢٩م» «ديوان الأعشى».

ويضيف الدكتور الطاهر مكي قائلاً: «ان تحقيق ما قبل القرن التاسع عشر كان متواضعاً ساذجاً وان ما تمّ خلاله وما بعده كان جيداً فقد توافرتْ للقائمين عليه وسائل المعارضة بين النُسَخ المختلفة للكتاب الواحد والثقافة الواسعة والتمكن من العربية فقوّموا النص وصحّحوا أخطاءه ووضّحوا اشاراته وضبطوا أعلامه وألحقوا بكل كتاب فهارس كاملة ومنوعة».

وفي مطلع القرن العشرين كانت النهضة المصرية في عنفوانها «تناضل على كل الجبهات وتتقدم كل الميادين وكان من نصيب الثقافة إلى جانب العناية بالتعليم احياء التراث وتحقيق ذخائره ونشرها على أُسس علمية محتذية مناهج المستشرقين وطرائقهم وأول خطوة في هذا الطريق يرجع فضلها إلى أحمد زكي باشا فقد قام بتحقيق مخطوطتي «أنساب الخيل» و«الأصنام» لابن الكلبي عام ١٩١٤م في مطبعة بولاق. وكان عمله فاتحة تقدم لم تعهده مصر في مجال التحقيق الأدبي من تقديم النص وضبطه والتعليق عليه وشرح غامضه والحاق الفهارس التحليلية به واستخدام علامات الترقيم الحديثة في الفصل بين جُمَله. ونشرتْ دار الكُتُب المصرية «صبح الأعشى» للقلقشندي مُحقّقاً في «١٤» مجلداً عام ١٩٢٠م ثم «نهاية الأرب» عام ١٩٢٣م ثم تبنّتْ كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني..» كما يقول العلاّمة الطاهر مكي.

ويكفي أن نعرف أن شيخ المحققين العلاّمة عبد السلام هارون قام بمفرده بتحقيق «١١٥» مخطوطا. كانت آية ونبراساً وعلامة دالة على عبقريته وتفرده في هذا اللون الصعب من العلم والفن.

وبمرور الزمن رحل عباقرة تحقيق التراث الواحد تلو الآخر فأحدث غيابهم جرحا غائراً في الخاصرة العربية لم يندمل بعد في حقل الثقافة والتراث. وأدى ذلك إلى اقتحام البعض لهذا البحر الهائج «التحقيق» وهو لا يمتلك الأدوات ولا الثقافة ولا الموسوعية فكانت الكارثة التي نحياها اليوم من المحيط إلى الخليج. فكم من الرسائل الأكاديمية التي تعطي في الماجستير والدكتوراه في تحقيق التراث واظهار المخطوطات إلا أن الكيف رديء للأسف الشديد والبون شاسع بين تحقيقات الأجداد والآباء الماهرين وبين تحقيقات الحفدة العاجزين. فالعجلة والتسرع والاكتفاء بدراسة التحقيق نظرياً فقط وعدم التتلمذ على أيدي شيوخ التحقيق تطبيقياً وارادة الحصول على الاجازة العلمية بأي وسيلة كانت كل ذلك أدى إلى عدم اتقان الجيل الجديد لقواعد فن التحقيق وضوابطه على الصورة التي وضعها رادة هذا الفن الجليل وشيوخه العظام.

ومن هنا كانت الأخطاء القاتلة وسوء الاختيار والتكرار وكثرة المعروض من عناوين التحقيق وقلة الزاد والفائدة من قبل ومن بعد.

فهل –يا تُرى– ماتت مدرسة التحقيق العربية التي أرسى دعائمها فطاحل المحققين؟

وما هو السبيل لمعاودتها إلى الحياة من جديد؟ وأين القائمون على التراث في المجامع اللغوية وكليات: دار العلوم واللغة العربية والآداب ومعهد المخطوطات العربية من هذه الظاهرة الخطيرة؟

وكيف يمكن الإرتقاء بالتحقيق مرة أخرى خصوصا أن ما هو دفين ومحجوب وخبيء من المخطوطات أكثر بكثير مما تمّ اخراجه حتى الآن؟

ومتى تعود للمحقق كرامته ومكانته ودوره الحيوي في المجتمع؟ وكيف نجذب أبناءنا إلى حب التراث في عصر يتيه عُجباً وخيلاء بعشق ما هو أجنبي. ويتندر من كل ما هو عربي الوجه واللسان والمكان.

فلك الله.. يا مخطوطات العرب. ولكَ اللهَ.. يا تراثنا الذي أُغرم به مَن ليسوا منّا فساحوا في بلادنا يبذلون كل نفيس وغال من أجل نشره وذيوعه بين الناس. أما نحن فوراء كرة القدم والتمثيل والطرب كان شغلنا ويا ليت كنّا فيها الأوائل بل الأواخر ولا فخر. بل صار فن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وأسمهان وفيروز والسنباطي والقصبجي وزكريا أحمد وسعاد محمد وفايزة أحمد وشادية وصباح وغيرهم متروكاً على قارعة الطرقات بعد أن صار النشاز مشهوراً مطلوباً بين العرب الأعاريب الأغاريب. فقد بتنا صغاراً صغاراً في الرياضة والفنَ والعلم والأدب. بعد أن كنا كبار الدنيا وسادتها.. في يوم ما.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.